

دوارة الرياح

يسرى الأيوبي

عاشت دوارة رياح حياة صاخبة في المنطقة الشمالية العاصفة المتقلبة، وتعبت من عبث الرياح بها، حتى أن السهم في أعلاها لم يكن يفر له فرار، فهو يتوجه حيناً إلى الشرق وحينما إلى الغرب بحركة سريعة منهكة دون لحظة راحة واحدة.

وكانت قد تزوجت من عمود رأسي من الحديد لقي مثل ما لقيت من صعوبة الحياة ومشاكلها يزعجه دورانها، ويقض مضجعه تقلبها، ولا يجد فرصة طيبة يتاجى وإليها أحاديث الغرام.

وشكت ذات يوم همها إلى رأس العائلة وكان يسكن في الطابق الأسفل من مكان إقامتها. وهو عمود من الحديد ثابت الجنان قوي الشكيمة له رأس صغيرة يمد من أسفلها أربع أذرع أفقية إلى مهب الرياح الأربع. وكانشيخاً مسناً شهد زوابع كثيرة قاسية وأحس لسعها، ولكن لم يخطر له يوماً أن يغير مكان إقامته، فجذوره موغلة في الصخر والإسمنت منذ مئات السنين. وكان يتقبل قدره السعيد حينما، التعيس حينما آخر بكثير من القناعة وسعة الصدر.

قال الشيخ المسن للدوار:

- أوجعت لي رأسي بشكوك الدائمة.. أنك لاتكتفين عن التذمر أنت وأخواتك، لأنما القرح الذي يصيبك لا يصيب غيرك في هذا الكون. بالأمس حين هب الإعصار قلع الأشجار وأغرقت السيل البيوت والناس، فماذا لو التوى لك مفصل بين الحين والآخر؟

قالت الدوار نائحة:

- مaudت أطيق الحياة في هذا المكان، ان عنف الرياح وخصامها ومشاجراتها لاتترك لي أو لزوجي راحة أبداً.

قال الشيخ الحديد مهداً سورتها:

يسرى الأيوبي قصص قصيرة رمزية

- إبني أحتمل رقصك وزوجك فوق رأسي تلك السنين الطويلة منذ أن صنعتنا يد المهندس ووضعتنا في هذا المكان، فتجملني أنت أيضا بالصبر، فلا بد لأن أيام المحن أن تزول.

تنهدت الدوارة وقالت:

- لو أننا كنا نعيش في مكان أكثر اعتدالا لنعمنا بالراحة ودفعه الشمس، يداعبنا نسيم البحر اللطيف، ويولد فينا الهوى والشباب. إن زوجي غدا متجمدا بسبب التلوّج والعواصف وهو لا يلتفت الي، ولم أسمع منه منذ زمن كلمة حلوة ينبعث منها الدفء. وكيف يمكن له ذلك وهو دائما خائف مرتعش من أن تفأك تلك العواصف الجباره مفاصله وتطايره أشلاء منتشرة في الجو؟

قال كبير العائلة بلهجته الرزينة:

- قرأت في الكتب المقدسة أن المهندس الذي صنع فصيلتنا أخذ تصمييمها عن دوارة كانت تقطن في القديم زمانا كان من أسعد أيامها، وكانت لها صولة ودولة، حتى أن الريح التجارية كانت حاجبة في قصرها.

لم تصدق الدوارة الطموحة أذنيها واستبد بها الفرح:

- في الربيع الماضي حط على ذراعي طائر متوسطي ملون الريش غنى لي أغاني بلاده، فأحسست برغبة جارفة للعيش هناك أنعم بالهدوء والسكينة والدفء. فلماذا لازذهب إلى هناك؟ فلا بد أن المنطقة تلائمنا مادامت جدتني عاشت فيها سعيدة.

أطرق العمود الحديدي ساهمما إذ تبين له أن الدوارة حمي رأسها وأنها مصرة على أن تجد صلة نسب لها بتلك الدوارة التاريخية التي جاء ذكرها في الكتب. ندم على ما تقوه به وقال محاولا التخفيف من حماسها:

- إن الرياح ترفض نقلنا إلى هناك فنحن لسنا طيورا ولا رملا تتقله الرياح، بل نحن كائنات مثبتة في الأرض لاتخلع بسهولة. وفوق هذا إن الرياح نظامها الكوني الذي تأبى أن تغير فيه، ونحن كما تعلمين لسنا إلا أدوات تديرها الرياح فيما شاعت.

يسرى الأيوبي قصص قصيرة رمزية

ما كان هذا الحديث الا ليزيد الدوارة تشبتا برغبتها التي أصبحت جارفة لاستطاع مقاومتها. فما دام الأمر متعلقا بالرياح فهي كفيلة أن تقنعها برغبتها في الإنقال إلى ساحل المتوسط، فهي جميرا تعشقها ولا ترد لها طلا. وخيل إليها في غرورها أنها هي التي تدير الرياح، وأنها طوع أمرها، وأخذت في نشر الأساطير عن مكانتها وأهميتها للرياح، وعن نبوءات آن أوان تتحققها، وأن الرياح هي مجرد أدوات لتنفيذ إرادة ربانية خلقت الكون لمصلحتها وراحتها. ولما أخذ الشيخ الرصين في لومها صاحت به محدثة:

- ألا تصدق؟ أنا خالقة الرياح، وهي تتحرك بإشارة مني.. انظر الي، حين أشير إلى الغرب تأثيرني من الغرب، وحين أشير الشرق تأثيرني من الشرق، وهكذا حين أشير إلى الشمال والجنوب. ألا يكفيك هذا دليلا على أن الرياح ملك إرادتي؟

قال كبير العائلة وقد أخذ بحماسها:

- حبذا لو كان لنا وطن في مركز العالم وأجلس على تل مشرف على البحر أراقب السفن العابرة التي تمر رهن إشارتي. ولكن تحقيق هذا أشبه بالمعجزة. أما اذا كنت حقا صديقة الرياح ومعشوقتها فلا أستبعد أن تحدث تلك المعجزة. إن الرياح تصبح حقا طوع أمرنا.

ومنذ ذلك اليوم لم يعد للدوارة من هاجس يورق ليلها ويشغل بها طوال النهار الا أن يتحقق حلمها بالإنقال إلى شاطئ المتوسط، ولم تمر بها ريح إلا استعطفتها:

- أنقذني إلى ساحل المتوسط أيتها الريح الغربية، أنت الأميرة الناهية بين الرياح، وأنا كفيلة أن أرعى هناك مصالحك.

- إنه وطني الحبيب أيتها الريح الشمالية، وطن أجدادي الأوائل الذين جاء ذكرهم في الكتاب المقدس.

- أطلب العدالة والإنصاف أيتها الريح الشرقية. أعيديني إلى وطني الذي نفيت منه، إرحمي تشتنبي السنين الطويلة وانقذني من عذابي، وثقني أنني هناك أرعى مصالحك!

يسرى الأيوبي قصص قصيرة رمزية

- أيتها الريح الجنوبية، أنت قريبتي، أنت ابنة عمي، لعن الله الزمن الذي فرق بيننا، وأنا لو تعلمين بعامر الشوق كي يلائم شمل عائلتنا الواحدة. ساعدبني لأعود إلى وطني وأحقق النبوءة القديمة.

وكانت الرياح تضحك عالياً وتهامس فيما بينها:

- جنت دواره الرياح، فهي تزعم أشياء لم نسمع بها من قبل. من أين تخرع لنفسها الأنساب والحقوق؟ إنها تريد تغيير النظام الكوني كي تتحقق أوهامها وأطماعها.

وأعملت الدواره الفكر طويلاً ثم غيرت من لهجتها:

- إبني أعرف أطماعن جمیعاً أيتها الريح فکم تهامتـن عند أصلعـي. كل واحدة فيـکـنـ تـشـتـهـيـ أنـ تـتـمـطـىـ عـلـىـ شـاطـئـ الـبـحـرـ المـتوـسـطـ، ولـهـذاـ تـشـكـنـ فـيـ حقوقـيـ وـنـسـبـيـ. إـنـکـ تـخـشـيـنـيـ لأنـنـيـ أـقـدـمـ مـنـکـنـ تـارـیـخـاـ، وـأـعـرـقـ نـسـباـ، وـأـكـثـرـ أـنـصـارـاـ. انـ رـیـاحـ الـفـجـوـاتـ وـالـدـرـوـاتـ، وـالـرـیـاحـ الـموـسـمـیـةـ وـالـإـسـتوـانـیـةـ کـلـهـنـ أـنـصـارـیـ، فـمـاـذاـ تـظـنـنـ نـفـسـكـ أـيـهـاـ الـرـیـاحـ الـمـتـعـجـرـفـةـ؟ـ أـنـاـ التـيـ أـوـجهـکـ وـأـسـیرـکـ عـرـفـتـ ذـکـ أـمـ لـمـ تـعـرـفـیـ، وـلـنـ تـسـتـطـیـعـ تـحـقـیـقـ أـحـلـامـکـ فـیـ أـنـ تـنـفـذـیـ إـلـىـ شـاطـئـ الـمـتوـسـطـ دـوـنـ أـشـیـرـ عـلـیـکـ بـأـنـ تـفـعـلـیـ.

وأردفت قبل أن تفيق الريح من دهشتـها وتحـلـ تلكـ الـظـاهـرـةـ الـغـرـبـيـةـ التـيـ بـرـزـتـ فـجـأـةـ لـتـلـعـبـ دورـاـ بـيـنـهاـ.

- أنا لست بـحـاجـةـ إـلـىـ صـدـاقـتـکـنـ وـلـكـنـ بـحـاجـةـ إـلـىـ صـدـاقـتـيـ، وـأـنـاـ لـأـرـغـبـ فـيـ الـذـهـابـ إـلـىـ شـاطـئـ الـمـتوـسـطـ بـنـاءـ عـلـىـ اوـهـامـ اوـ اـطـمـاعـ کـمـاـ يـخـيلـ لـکـ، بلـ لـأـمـرـ لاـعـلـاقـةـ لـهـ بـشـخـصـيـ، لـأـصـلـحـ بـيـنـکـ أـيـهـاـ الـرـیـاحـ الـحـمـقـاءـ الـهـائـجـةـ التـيـ تـدـمـرـ السـفـنـ وـتـسـقـطـ الطـائـراتـ وـتـحـرـفـ الـقطـارـاتـ عـنـ مـسـارـهـاـ، وـتـقـلـعـ الشـجـرـ وـتـهـدمـ الـبـيـوتـ. ليـکـونـ بـيـنـکـ سـلـامـ فـتـشـطـ الـرـیـاحـ الـتـجـارـیـةـ التـيـ کـانـتـ ذاتـ يـومـ حـاجـةـ فـیـ قـصـرـ جـدـتـیـ، وـیـعـمـ الـخـيـرـ الـجـمـیـعـ.

* * *